إعجاز للبحث والتأمل العلمي
EAJAZ
International Journal of Research and Scientific Meditation

مقدمة

مَنْهَجُ البَحْثِ العِلمِيّ ومَصادِرُ المَعْرِفَةِ[1*]

الدكتور سامر مظهر قنطقجي
Islamic Business Research Center Chairman,
Global Islamic Economics Magazine Editor in Chief,
AREES University Chairman,
PEBBLE HILLS University Vice Chancellor

ملخص :

إنّ الباحثَ عن الحقيقةِ هو ديدنُ الإنسانِ في كلّ عهدٍ وزمانٍ، وتتأثّرُ طُرُقُ البحثِ بأمورٍ عديدةٍ، تتغاير طُرُقُها حسب مُعتقداتِ الناسِ وثقافاتهم وبيئاتهم، وليس الاعتقادُ هو الإيمانُ بِدِينٍ من الأديانِ؛ بل يشملُ الاتجاهاتِ الفكريةَ التي تصلُ بالباحثِ إلى درجةِ الاعتقادِ بها وكأنّها دِينٌ.

وتختلفُ طبيعةُ منهجِ البحثِ باختلافِ مُقدّماتِه وبتنوُّعِ المصادرِ الفكريةِ للباحثينَ، وحُقَّ لكلّ إنسانٍ يبحثُ بحُريّةٍ عمّا يراه صالحاً؛ ولكنّ الخشيةَ في انحرافِه أن يكون مُفسِداً في الأرضِ ضارّاً بنفسِه وبغيرِه.

فأيُّ المناهجِ أصلحُ للاتباعِ؟ ومِن أيّ مصادرِ المعرفةِ يجبُ أن ينهلَ؟ فالحياةُ لا نعيشُها إلّا مرّةً واحدةً، والخطأُ في ذلك قد يكون جسيماً!

كلمات مفتاح:

البَحْثِ العِلمِيّ، مَصادِرُ المَعْرِفَةِ، المصادرِ الفكريةِ

Abstract:

Researching for truth is a human peculiarity in every era and time, and research methods are affected by many things. The methods of research vary according to people's beliefs, cultures and environments. The belief is not only to believe in a religion but also to include intellectual trends that make the researcher believe they are a religion.

The nature of the research methodology differs according to its various premises and diverse intellectual sources to the researchers. Every Man has the right of search freely for what he considers suitable, but there is fear that he deviates to be a spoiler on the earth causing harm to himself first and the others second.

Which curricula are fittest to be followed? Which knowledge resources are to be approached? Life is lived only once, and the error may be deadly!

[*] مقتبس من كتاب للمؤلف عنوانه: البحث العلمي نظرات في منهجه ورسائله

إنَّ العِلمَ بلا شَكٍّ هُوَ الأداةُ التي يَبحثُ بها الإنسانُ عن الحقيقةِ، والعِلمُ ليسَ للمُباهاةِ.. وليسَ للمُماراةِ.. وليسَ لِتخيُّرِ المَجالِسِ.. بلْ هو أداةٌ للوُصُولِ إلى حَقيقةِ الأشياءِ، وهُوَ بِدَورِهِ يَحتاجُ لأدواتٍ للبَحثِ عنه.

بَدأتْ هذه الأُمَّةِ بـ (إقرأ) فصارتَ تُعرَفُ بأُمَّةِ اقرأ؛ فالقِراءةُ أوَّلُ العِلْمِ، والسُّؤالُ بابُهُ ودَواؤهُ، قالَ عبْدُ اللهِ بنُ عبَّاس رضي الله عنهما: هلّا سألتمْ إذا لمْ تعلمَوا؟ إنَّما دواءُ العِلمِ السَّؤالُ. ويُعبِّرُ اللُّغويونَ عنِ البَحثِ بأنَّهُ: إثارةُ الشَّيءِ، وأنْ تَسألَ عنِ الشَّيءِ وتَستخبِرَ، ويَقولونَ عنِ العِلْمِ أنَّه: يَدُلُّ على أثرٍ بالشَّيءِ يَتميَّزُ بهِ عنْ غَيرِه، أمَّا النَّهجُ: فهُوَ الطريقُ المُستقِيمُ الواضِحُ، بَينما تَعني الرِّسالةُ الانبِعاثَ والامتِدادَ، والثَّباتَ، والإصْلاحَ بينَ النَّاسِ.

روى أبو الدَّرداءِ حديثاً عنْ رسولِ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وآلهِ وصحبِه وسلَّمَ خصَّ بهِ العِلمَ وطَلبَتَهُ؛ فأعلى شأنَهُم، وسخَّر لهَم الكونِ كُلَّه، يَدعو له بالاستغفارِ، وشرَّفَهُم بإرثٍ لا يَبلى، فقالَ: مَنْ سَلَكَ طريقًا يَطلُبُ فيهِ عِلمًا، سَلَكَ اللهُ بهِ طريقًا مِنْ طُرقِ الجَنَّةِ، وإنَّ الملائِكةَ لتَضَعُ أجنِحتَها رِضاً لِطالبِ العِلمِ، وإنَّ العَالِمَ لَيستغفِرُ لهُ مَنْ في السَّماواتِ ومَنْ في الأرضِ، والحيتانُ في جَوفِ الماءِ، وإنَّ فَضْلَ العالِمِ على العابدِ كفضلِ القَمرِ ليلةَ البدرِ على سائرِ الكواكبِ، وإنَّ العُلماءَ ورثةُ الأنبياءِ، وإنَّ الأنبياءَ لمْ يُورِّثُوا دِينارًا ولا دِرهمًا، ورَّثُوا العِلمَ فَمَنْ أخذَهُ أخَذَ بحظٍّ وافرٍ، (سنن أبي داوود).

إنَّ المشاكلَ المعرفيّةَ التي يَفرِضُها مَجالٌ من مَجالاتِ المعرفةِ هي التي تُحدِّدُ طبيعةَ المنهجِ، وإنَّ اختلافَ تلكَ المشاكلِ المعرفيّةِ التي يُواجِهُهَا الباحثُ في مجالٍ دونَ آخرَ هُو الذي يُميِّزُ هذا المجالَ، ويُوحِي بشخصيتِهِ المُستقلةِ، ويُحدِّدُ طبيعةَ مَنهَجِه[1].

وبسببِ ارتباطِ المنهجِ الوثيقِ بالمشكلاتِ العمليّةِ التي تُقدّمها مَادةُ البحثِ، فإنَّهُ يُعتبرُ مُتطوراً بينَ مَرحلةٍ وأُخرى مِن مَراحلِ التطورِ العمليّ؛ لذلكَ يُمثلُ المنهجُ مادةَ بحثٍ مستمرٍ. فالمشاكلُ العمليَّةُ تختلفُ بين مَرحلةٍ وأخرى مِن تَطورِ مراحلِ العِلمِ الناجِمَةِ أساساً عن تَطورِ الحاجاتِ الاجتماعِيةِ التي يَليها ذلكَ العِلمُ[2].

إنَّ كَونَ المنهجِ مادةَ بحثٍ مستمرٍ يُناسبُ المناهِجَ التجريبيَّةِ؛ لكنَّهُ لا يَعني بالضرورَةِ صِحَّةَ تَصويرِهِ للمشكلاتِ العمليَّةِ بإطلاقِهِ دُون ضَابطٍ واضحٍ لهُ؛ ففي ذلكَ مصلحةٌ (برغماتية) مُفرطِةٌ؛ فرُبَّما يأتي البحثُ العلميُّ بأدواتٍ قاتلةٍ للناسِ، ومسيئةٍ لهم، كما كانَ أثرُ قُنبلةِ هيرُوشيما، أو الأدويةِ التي يتمُ تجرِبَتُها على الناسِ في أفريقيَّةَ وغيرِها؛ لذلك فالقولُ بأنَّ المُشكلاتِ العمليَّةَ هيَ التي تَرسُمُ حُدودَ المنهجِ، وتُحددُ إطارَهُ هو كلامٌ قاصرٌ لا يُعبِّرُ عن حقيقةِ المنهجِ العلميّ.

إنَّ لِكُلِّ مُجتمعٍ مَدرَسَتُهُ الفِكريَّةُ التي ينهَلُ مِنها، ويُحَدِّدُ سُلوكَهُ بناءً على مَفاهيمِها، ومبادئِها، ويتميَّزُ المَنهجُ الإسلاميُّ باستقلاليَّتِه عن غيرِه، يقولُ تعالى: ﴿لِكُلٍّ جَعَلْنَا مِنكُمْ شِرْعَةً وَمِنْهَاجًا ۚ وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَجَعَلَكُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً﴾ (المائدة: ٤٨). كما يتميَّزُ بِشُموليَّتِهِ ونُظُمِهِ؛ فهو لا يترُكُ العَنانَ لإيجادِ واقعٍ عمليٍّ مَفروضٍ، ثمَّ يعمَدُ إلى تأصيلِ هذا الواقعِ، وضَبْطِهِ ضِمْنَ مَنْهَجِه؛ بلْ يرسُمُ إطاراً مَنهجيّاً عامّاً مُتناغِماً لِكُلِ واقعٍ ومُحتملاً.

لقدْ خلقَ اللهُ تعالى الإنسانَ، وأسكنَهُ الأرضَ لِعبادتِه، قال تعالى: ﴿وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالإِنسَ إِلاَّ لِيَعْبُدُونِ (٥٦) مَا أُرِيدُ مِنْهُم مِّن رِّزْقٍ وَمَا أُرِيدُ أَن يُطْعِمُونِ (٥٧) إِنَّ اللَّـهَ هُوَ الرَّزَّاقُ ذُو الْقُوَّةِ الْمَتِينُ (٥٨)﴾ (الذاريات). والمَعرفةُ هي سبيلُ تحقيقِ هذه الغايةِ، وهي المرحلةُ الأُولى للعِلمِ، ولا تتمُّ إلاّ بأدواتٍ خاصَّةٍ؛ كالعقلِ، والحَواسِّ؛ فالعقلُ بذاكرتِه، وما زوّده اللهُ بهِ مِن خصائصَ؛ هو المُحرّكُ، والباعِثُ لِعمليةِ التفكيرِ التي سُتميَّز بها المَعارفُ، إلاّ أنّ العقلَ، وأدواتِه مُنقطعانِ عن مُحيطِه، ولنْ يتلَّمَس ما حولَه دونَ حواسٍّ تنقلُ له ما يَجري

خارِجَه؛ فالسَّمْعُ، والبَصَرُ، واللمْسُ، والشَّمُّ، والذَّوقُ كُلُّها حواسٌّ موصولةٌ بالدِّماغِ بأعصابٍ مُعقَّدةِ التركيبِ؛ مَهمَتُها نقلُ البياناتِ إلى العقلِ، أو الدِّماغِ الذي هوَ مَصدَرُ التفكيرِ، والذَّكاءِ، والذَّاكِرة، والإدراك. وبتفاعُلِ البياناتِ المُدْخَلَةِ مع مَحفوظاتِ الذاكرةِ، وطِبقاً لإدراكِه، ودَرجةِ ذَكائِه سَتتشكَّلُ المَعرفةُ. وبمُرورِ الوقتِ تزدادُ المَعارِفُ وتتراكَمُ؛ فمِنها ما يبقى في الصُّدورِ، ومِنها ما يُنقلُ إلى السُّطورِ؛ وستكونُ المَعارفُ المَخطوطةُ على الورَقِ، أو المَحفوظةُ بأيّ وسيلةٍ أُخرى مُتاحةً للعقلِ ينهَلُ مِنها متى شاءَ.

وبناءً على ذلكَ، إذا قلنا للوهْلَةِ الأُولى أنّ الكونَ المَحسوسَ هوَ مَصدَرُ المعرفةِ؛ لَتساوى بذلكَ الإنسانُ والحيوانُ؛ لاشتِراكِهما بالحواسِ المَذكورةِ، وبما أنّ اللهَ تعالى ميّزَ الإنسانَ وكَرَّمَهُ بالعقلِ؛ فإنّ التفكيرَ، والاستنباطَ هُما أداتانِ مُساعِدتانِ في عمليةِ تحليلِ البياناتِ الواردَةِ، وللوصولِ إلى قراراتٍ ذَكيّةٍ؛ سواءً اكتفى العقلُ بالاستقراءِ والتجرِبةِ، أمْ أدخلَ القياسَ، وأعمَلَ الفِكْرَ بالاستنتاجِ.

لكنَّ الكونَ المحسوسَ هوَ مَصدَرٌ ثانويٌّ للمَعرِفةِ، وهو مَخلوقٌ مِن قِبَلِ خالِقٍ مُبْدِعٍ خبيرٍ عليمٍ. مِن هُنا نستنتجُ أنّ المَصدَرَ الأساسَ، أو الأوَّليَّ للمَعرِفةِ هو اللهُ تعالى ﴿وَعَلَّمَ آدَمَ الأَسْمَاءَ كُلَّهَا﴾ (البقرة: ٣١). لِذلكَ فإنَّ مَصادِرَ المَعرِفةِ الإسلاميةِ تتألف من مصادِرُ أصيلةٌ هِيَ: القُرآنُ الكريمُ، والسُّنَّةُ النَّبويّةُ الشَّريفةُ، والإجْماعُ. ومصادِرُ تَّبعِيَّةٌ، هِيَ: القِياسُ، والمَصالِحُ المُرسَلَةُ، وسَدُّ الذَّرائِعِ، والعُرفُ، وشَرْعُ مَنْ قَبْلَنا، وقَولُ الصَّحابِيّ، والاسْتِصْحابُ. تُعتبَرُ المَصادِرُ الأصليّةُ ثابِتةً للتّشريعِ، وللمَعرِفةِ الإسلاميةِ. أمّا المَصادِرُ الأُخْرى فهِيَ فَرْعٌ تَستَقي مِنَ الثَّوابتِ؛ فالقِياسُ، والاسْتِحْسانُ والمَصالِحُ المُرسَلَةِ، وسَدُّ الذَّرائعِ هيَ مَجالٌ فسيحٌ لإعمالِ العقلِ بالاستنتاجِ، أمّا العُرْفُ، وشَرْعُ مَن قَبْلَنا، وقولُ الصحابِيّ، والاستِصحابُ؛ فهِيَ تَسمحُ بالاستقراءِ؛ أي قِراءةِ الوقائعِ التاريخيةِ، واسْتِخلاصِ ما هُوَ مُفيدٌ مِنها؛ فالمَعارفِ والعُلوم مِلْكٌ للبشريةِ جَمعاءَ.

المراجع:

[1]Edward, Paul, The Encyclopedia of Philosophy, The MacMillan Co. & The Free Press, New York, 1967 Vol. 1, p. 339.

[2] القاضي، د .حسين، *نظرية المحاسبة*، منشورات جامعة دمشق ١٩٨١